إخوتي وأخواتي الأحباء،

إن المناسبة التي تجمعنا هنا اليوم مناسبة حزينة، حيث فقدت الكنيسة قائدها ومرشدها. إننا نشعر وكأننا يتامى. لكن حزننا هذا لا يقود إلى اليأس، وذلك لأننا نؤمن أنّ أورشليم السماوية حظيت اليوم بمواطن جديد. إننا جميعا متأثرون بهذه اللحظات الحزينة في حياة الكنيسة جمعاء، ولكننا في الوقت نفسه مبتهجون لأننا نعلم أنّ يوحنا بولس الثاني لن يبقى رهينة للموت والفناء، بل إنه حيّ في السماء مع القائم من بين الأموات، سيدنا ومخلّصنا يسوع المسيح. لذلك، فإننا إذ قد اجتمعنا في هذا المكان المقدّس، في كنيسة القيامة وموقع القبر الفارغ، نحتفل بقداس القيامة، وذلك لأننا رغم أن موت قداسة البابا يحزننا إلا أن حدث القيامة المجيدة يجلب لنا العزاء والسلوى.

هنالك الكثير من المناقب والمآثر وأعمال الخير التي يمكننا أن نتخذ منها موضوعاً لكلمتنا هذا الصباح، في حديثنا عن الحبر الأعظم، قداسة البابا يوحنا بولس الثاني؛ فقد كان الشخصيّة الأعظم التي فرضت نفسها خلال العقود الثلاثة الأخيرة. دامتْ فترة حبريته حوالي ربع قرن من الزمان، وهي فترة طويلة نسبيّاً مقارنة مع من سبقه، قام خلالها بأكثر من مائة رحلة وزيارة رسولية، وأصدر عدداً كبيراً من الوثائق الرسمية، وأعلن عدداً كبيراً من القديسين والقديسات.

إنه البابا الذي أكمل بعزم وتصميم حركة التجدد التي بدأها المجمع الفاتيكاني الثاني. فقد كان مدافعاً عنيداً عن حقّ الإنسان –كل إنسان- بالحياة والكرامة، حيث ركّز على أهميتهما ضد كلّ سلطة مطلقة، وكل أنواع الاستغلال والمغالاة. لقد كان المدافع عن صورة الله تعالى في كل إنسان أينما كان: في أمريكيا اللاتينية، أو في أفريقيا، في قارته أوروبا التي مزقتها الخلافات، أو في آسيا والشرق الأوسط على وجه الخصوص. لقد كان دائما ذلك الصوت الحر القوي المدافع عن الضعفاء والمستضعفين، والفقراء والمزدرين. لقد سلم نفسه بشكل كامل للمسيح يسوع وللكنيسة، مستهلكا جمّ طاقاته في البشارة الواقعية دون أي تحريف.

لقد كان حبر المبادرات الشجاعة. ويسعدني في هذا الشأن أن أذكر من هذه المبادرات بوجه خاص، تلك التي تخص كنيسة الأرض المقدسة.

أولى مبادراته الشجاعة كانت لقاؤه بجميع الزعماء الروحيين في العالم، ذلك اللقاء الذي اتخذ من أسيزي مركزاً له. حيث حمل هذا البابا القادم من الشرق على عاتقه، دعم وتقوية الحوار بين الأديان. وأصرّ في مختلف رحلاته الرسولية على مقابلة الزعماء الروحيين المحليين في كل بلد، بغض النظر عن مضمون إيمانهم أو عقيدتهم، كما وأكّد باستمرار على أن العمل على بناء السلام هو الوظيفة الأساسيّة لكلّ الديانات بلا استثناء.

ونحن، في هذه الديار المقدّسة، نتفهّم جيّداً قيمة دعوة قداسة البابا إلى السلام والعمل على إحلال السلام. حيث أننا هنا في القدس نحيا في علاقة متبادلة مع اليهود والمسلمين، ومع إخوتنا مسيحيي الكنائس الشرقية الذين نتقاسم وإياهم رعاية الأماكن المقدسة التي تحتفظ بأهم مراحل تاريخ خلاصنا. فلنصغي إلى كلمات الحبر الأعظم التي ألقاها بمناسبة لقائه الأخير مع غبطة البطريرك المسكوني برتلماوس، في روما في التاسع والعشرين من حزيران الماضي تحت عنوان "ليكونوا بأجمعهم واحداً"، حيث قال: «إنّ مصدر جهودنا

وعملنا من أجل الوحدة يعتمد أساساً على كلمات المسيح ورغبته التي أعلنها في إنجيله المقدس. لسنا هنا بصدد مشاعر آنيّة عابرة للتقرب من بعضنا البعض، بل نسعى إلى قيام رابط إيماني لاهوتي غير قابل للانفصال، رابطاً من شأنه أن يقودنا إلى الإتحاد لا إلى الانشقاق (...) وذلك لكي لا توبخنا ضمائرنا في المستقبل إذا ما تجنبنا خطوات معيّنة أو أهملنا فرص سانحة أو توانينا عن تجربة كل السبل المتاحة في سبيل التوصل إلى الوحدة الحقيقية».

وإننا إذ نشكر إخوتنا اليهود والمسلمين وسائر إخوتنا المسيحيين من مختلف الكنائس لحضورهم هذه الشعائر الدينية، فإننا نرى في هذا الحضور شهادة على العمل الدؤوب الذي بذله الحبر الأعظم من أجل دعم وتقوية الحوار بين الديانات والكنائس، كما أنه شهادة للحاجة الملحة، في أن نتقدم نحن أيضاً في هذا المشوار الذي بدأه قداسته، من أجل بناء عقلية سلام واحترام متبادل. على جميع المؤمنين من مختلف الديانات، يهودا ومسلمين ومسيحيين، أن يكونوا شهوداً للرجاء، لأننا واثقون ومتأكدون أن الله تعالى هو إلهُ الإنسانية جمعاء. بدون رجاء لا يمكن للحياة أن تستمر. علينا إذن أن نكون شهوداً أمناء حريصين على إبقاء شعلة الأمل والرجاء مشتعلة في هذا المضمار الذي خصّص قداسته من أجله كل انتباهه.

إن زيارة البابا للكنيس اليهودي في مدينة روما، في الثالث عشر من شهر أيار سنة 1986، تعدُّ زيارة تاريخية. فهذا الحدث يحمل لنا، نحن سكان هذه الديار المقدسة، معنىً خاصاً لا يسعنا إلا أن نتوقف عنده لحظات. فقد افتتح قداسته من خلال هذه الزيارة علاقات صداقة واحترام متبادل بين الكنيسة الكاثوليكية والتقليد العبري، الذي من خلاله ترسخت الديانة المسيحية، والذي بدونه لا يمكن لنا أن نفهم الحدث التاريخي "يسوع الناصري". وقد رفع قداسة البابا آيات الشكر للإله القدير لأنه ساعد «الإخوة على الالتقاء من جديد ونشر التفاهم العميق بين الكنيسة واليهود» وتمنى قداسته «أن تكون القلوب قد تخطّت الأحكام المسبقة القديمة، وأعطت المجال للاعتراف الدائم الكامل بذلك الرابط والإرث الروحاني المشترك بين اليهود والمسيحيين: فالديانة اليهودية –كما قال قداسته- ليست غريبة عنا بل هي مرتبطة بشكل أو بآخر بديانتنا المسيحية».

كذلك الأمر مع العالم الإسلامي، عرف الحبر الأعظم كيف يقوم بمبادرة شجاعة. وقد تجلى ذلك في زيارته التاريخيّة للمسجد الأموي الكبير في دمشق في السادس من شهر أيار سنة 2001، والتي قال خلالها: «انه لمن المهم للمسلمين والمسيحيين أن يُتابعوا عمليّة البحث معاً في المسائل الفلسفية واللاهوتية، بهدف التوصّل إلى معرفة أعمق وأكثر موضوعية لإيمان كلّ منهما. من شأن التفاهم المتبادل أن يؤدي بالتأكيد، من الناحية العملية، إلى تقديم الديانتين، لا كعقيدتين متضادتين كما حدث في الماضي للأسف، بل كديانتين متعاونتين ومتعاضدتين في سبيل مصلحة الإنسانية جمعاء». يمكن للحوار بين الديانات أن يتقدم بصورة أفضل عندما ينمو من خلال تجربة «العيش المشترك بين الطرفين يوميّا»، في حضن الجماعة وفي ظل الثقافة المشتركة.

ولا يمكنني أن انهي كلمتي المختصرة غير الكافية بحق يوحنا بولس الثاني دون أن أذكر زيارته إلى الأراضي المقدسة، التي جرت من العشرين وحتى السادس والعشرين من شهر آذار بمناسبة اليوبيل الكبير لسنة 2000. حيث كانت أحداث تلك الزيارة التاريخية

بمثابة حجر الألف ميل في مشوار الكنيسة نحو الحوار مع اليهودية والإسلام. فزيارته إلى حائط المبكى والمساجد لا زالت مطبوعة في أذهاننا.

وقد قال قداسة البابا خلال زيارته: «إن أورشليم القدس هي مدينتنا أجمعين، وكما يدل اسمها، فهي مدينة السلام». وقد رفع البابا صوته عالياً في أكثر من مناسبة مصلياً من أجل السلام في هذه المدينة، وفي الأراضي المقدسة وفي الشرق الأوسط والعالم أجمع. لقد احتلت الديار المقدسة، بشكل خاص، حيّزاً خاصاً في أفكاره وتطلعاته. فكثيرة هي المرات التي خصص فيها صلاة "السلام الملائكي" ظهيرة كلّ يوم من أجل السلام في الديار المقدسة ناهيك عن الوثائق الرسمية العديدة خاصة تلك التي أصدرها بمناسبة يوم السلام العالمي.

وأود هنا أن أقتبس مقطعاً من الرسالة التي كتبها في يوم السلام العالمي لسنة 2002 ، والتي تحمل معنى خاصا، برز بشكل واضح من خلال عنوانها الذي اختاره لها وهو: «*لا يوجد سلام دون عدل، ولا يوجد عدل دون تسامح*». وقال في كلمته: «عندما أتأمل في موضوع التسامح، لا يسعني إلا أن أذكر بعض النزاعات المحزنة، التي راحتْ تغذي منذ فترة طويلة الحقد العميق والمؤلم، والتي أدّت إلى أحداث مفجعة لم نتمكن من إيقافها، منها شخصية ومنها جماعية. وأعني بكلامي هذا، بشكل خاص، الأحداث الدامية التي تجري في الأراضي المقدسة، تلك البقعة المباركة والمقدسة التي تكرّس لقاء الله مع البشر، وذكرى ميلاد وحياة وموت وقيامة الرب يسوع أمير السلام».

لا زالت هذه الكلمات تصف اليوم واقعنا الأليم، كما أن المسامحة والمصالحة ما زالتْ صعبة في أرضنا المحبوبة هذه.

وإنني إذ أتحدث عن زيارة البابا التاريخية للديار المقدسة، تحضرني ذكرى حدث خاص وقع خلال اليوم الأخير لزيارته، قبيل مغادرته. فقد طلب قداسة البابا، فجأة وبدون سابق إنذار، أن يرجع مرة أخيرة إلى هذا المكان المقدس، ليصلي عند صخرة الجلجلة. أذكر هذا الموقف بالتحديد لأنني أومن بأنه يلخص جوهر فترة حبرية قداسة البابا يوحنا بولس الثاني. فقد عاش قداسته في ظل الصليب. فمَن مِنا شاهده خلال السنوات الأخيرة الماضية، ولم يسمع أصداء كلمات نبوءة أشعيا النبي، التي نتأملها كل يوم جمعة خلال *رياضة درب الصليب*، تتردد في قلبه، تلك النبوءة التي تقول: «لا صورة له ولا بهاء فننظر إليه، ولا منظر فنشتهيه. مزدرىً ومتروكاً من الناس، رجل أوجاع وعارف بالآلام ومثل من يستر الوجه عنه، مزدرىً فلم نعبأ به» (53، 2-3). هكذا كان البابا يوحنا بولس الثاني "أيقونة" لذاك الذي «بصليبه قد خلص العالم». لقد كان قداسته، حتى وهو في حالة صحية صعبة، شاهدا في العالم أجمع لقيامة السيد المسيح، ولمعناها الخلاصي لكل إنسان. وفوق هذا كلّه، كان قداسته قد أعلن، هنا بالذات، قبل خمس سنوات: «إنّ قيامة ربنا يسوع المسيح من بين الأموات هي العلامة على أن الآب الأبدي أمينٌ لمواعيده ويُقيم من الموت حياةً جديدة (...) لا يمكن أبداً لبشرى القيامة أن تنفصل عن سر الصليب».

هذا الإيمان الذي كان قداسته يدعو إليه، هو إيماننا نحن أيضا. فإنْ كنا الآن جميعاً حزانى لفقدان هذه الشخصية العظيمة في كنيسة المسيح، فإننا «نَعلَمُ أنَّ المسيح، بَعدَما أُقيمَ مِن بَينِ الأموات، لن يَموتَ بعدَ ذلِك ولن يَكونَ لِلمَوتِ علَيه مِن سُلطان ». إننا نعلم في الحقيقة «أنه حي يرزق، حيٌّ مع الله». (روما 6: 9. 10).

يعلن أشعيا النبي اليوم: « وُيزيلُ مِن هذا الجَبَل وَجهَ الغِطاءِ المُغَطّي جَميعَ الشُّعوب والحِجابِ المُحَجِّبِ جَميعَ الأُمَم. ويُزيلُ المَوتَ على الدَّوام وَيمسَحُ السَّيِّدُ الرَّبّ الدُّموعَ عن جَميعِ الوُجوه ... هُوَذا إِلهُنا الَّذي انتَظَرْناه وهو يُخَلِّصُنا، هُوَذا الرَّبُّ الَّذي انتَظَرْناه فلنَبتَهِجْ ونَفرَح بِخَلاصِه. لأَنَّ يَدَ الرَّب تَستَقِرُّ في هذا الجَبَل» (أشعيا 25: 7، 9-10)، أي أورشليم القدس.

نعم، في القدس، على هذا الجبل، وفي هذا المكان، قد اختبرنا خلاصه. هنا قد أزال الموت إلى الأبد ومسح كل دمعة. وقد كرّر الملاك في الإنجيل مرة أخرى: «لا تخافا أنتما...لقد قام كما قال...اذهبا فبلّغا إخوتي» (متى 28: 5 . 10).

لقد ترك البابا يوحنا بولس الثاني لنا نحن سكان الأراضي المقدسة هذا الميراث: **لا تخافوا!** هذا ما قرأناه في الإنجيل الذي سمعناه للتو. هذه الجملة موجهة لنا الآن نحن سكان هذا الجبل، سكان القدس، حتى تكون دافعا وحافزا لنا في عملنا. لن نخاف أن نبتهج بخلاصه وأن نشهد لإخوتنا بذلك الحب الذي يحتضن جميع الشعوب، ويزيل كل حدود، ويغلب كل عداوة ويتخطى كل انشقاق.

وإننا نبتهل إلى والدة الله القديسة مريم، التي كرس لها نفسه، أن تحضن ابنها هذا في فرح القديسين، وتهب الكنيسة قائداً جديدا يعرف كيف يسير بها إلى الأمام على خُطى يوحنا بولس الثاني.